الإسلام والاقتصاد

« الناس شركاء في ثلاثة : الماء والكلأ والنار » .
حديث شريف

obeikandl.com

obeikandl.com

العمل في الإسلام

عندما أتى الإسلام كان المجتمع الجاهلي يعيش في حالة من الفوضى يُرثى لها ، فالعلاقات الاجتماعية مفككة مهترئة ، والعصبية القبلية قائمة ، والنهب والسلب والغزو ، وما إلى ذلك من هذه الأمور .

ولم يكن لهذا المجتمع تلك الموارد والقوانين الاقتصادية الثابتة ، فكان اقتصاد تلك القبائل يعتمد على ناحيتين :

ـ قوافل التجارة .

ـ الغزوات .

وهذه الغزوات كانت تقلق الأمن العام في تلك البقاع .

وأتى الإسلام وحقق للناس الأمن بجميع جوانبه : العقل والنفس والدين والعرض والمال. . . وسنتطرق الآن إلى موضوع المال والثروات في المجتمع الإسلامي، وكيف نظم الإسلام المعاملات الاقتصادية. . ونظم أساليب افادة من المال. . هذا المال الذي يؤدي تجمعه إلى الانتقال من المرحلة الدنيا ـ البداوة ـ إلى المرحلة العليا في تطور المجتمع ـ حياة المدن ـ.

وهذا الانتقال يتحقق حسب رأي ابن خلدون عن طريق تجمع ونمو الثروات ، والذي يلعب الدور الحاسم فيه تزايد كمية العمل

المصروف في الإنتاج[١] .

إذاً ازدياد العمل في سبيل الإنتاج ، سوف يؤدي إلى تجمع الثروات ، وهذا التجمع في الأموال إن كان هناك ما ينظمه ويضبطه ، عندها سوف يؤدي إلى تطور المجتمع وانتقاله من حالة البداوة إلى حياة المدن .

وهذا ما أتى الإسلام من أجل تحقيقه ، بعد حياة طويلة دامت ، بعيداً عن الأمن والاطمئنان ؛ الذي يؤدي إلى تطور العلاقات الاقتصادية وازدهارها .

إذاً كانت الحياة الاقتصادية غير قادرة على النهوض بأسس صحيحة تسير عليها حياة المجتمع القبلي . . والسبب هو فقد أهم شرط لبناء الحضارة ، وهو الأمن والطمأنينة .

«فتخلصت الإنسانية من الخوف ـ ذلك المارد الذي يسيطر على قلوب الناس سواء العاديين منهم أو المفكرين ـ هذا الخلاص يؤدي لنهوض وظهور الحضارة . . فالحضارة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق ، لأنه إذا ما أمِن الإنسان من الخوف ، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء . . وبعدئذٍ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضيّ في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها »[٢] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٣٨١ .

(٢) ول ديورانت ـ قصة الحضارة ـ جزء أول ، صفحة ٣ .

وقد حقق الإسلام للمجتمع الإسلامي الأمن الاقتصادي على مدار ثلاثة عشر قرناً تقريباً ، بعيداً عن كل شائبة يمكن أن تعكر اقتصاده . . وأوجد الإسلام نظاماً اقتصادياً متكاملاً أدى إلى اختلاف نوعية الحياة في المجتمع الإسلامي ، واختلاف الأجيال المسلمة عن سابقتها ؛ لأن المادة عند توافرها تكون عاملاً مهماً من عوامل التقدم والرخاء . . ولذلك يقول ابن خلدون :

«اعلم أن اختلاف الأجيال في أموالهم إنما هو باختلاف غلتهم في المعاش ، فإذا اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه ، وبسيط قبل الحاجي والكمالي »[١] .

وبالتالي فهذا الاجتماع من أجل تحصيل الأرزاق وكسب القوت ، يحتاج للتنظيم والعمل بجد في سبيل تأمين حاجات المجتمع الأساسية . . قبل التفكير في تأمين الأشياء الثانوية والكمالية . . فأنا لا أطمح لبناء معمل سيارات والمجتمع لم يشبع الخبز بعد . . ولا آتي لأبني معامل لصنع ـ نكاشات الأسنان ـ والمجتمع لم يقع بين أضراسه هذا الطعام الذي يحتاج لنكش الأسنان .

لذلك حضَّ الإسلام على العمل ، لأن العمل هو مصدر الثروات ، وكل زيادة في إنتاجه تؤدي إلى وفرة في كمية الخيرات

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٦٩ ـ ٧٤ .

المادية . . مع مراعاة شرط توفير المواد الأساسية .

وتنظيم العمل شرط ضروري لإنتاجية صحيحة ، وتقسيم العمل بالتالي هو الشرط الأكثر أهمية في زيادة إنتاجية العمل[١] . . فجعل الإسلام العمل وطلب الرزق والسعي واجباً على كل فرد .

ونفَّر الإسلام من التواكل والتقاعس ، ورغَّب في طلب الرزق والعمل بأن جعل العمل عبادة ، فأمر الناس بالسعي في سبيل كسب الرزق حتى لا يتواكل الناس ويتخلفوا عن غيرهم ، والدافع للعمل هنا هو جعله جزءاً من العبادة والإيمان ، أي العمل من كمال إيمان الفرد . . لذا لا نجد مسلماً متقاعساً ؛ لأن كل مسلم هدفه الوصول إلى الرضا الإلهي ، ورضا المجتمع عليه . . ولقد دعا القرآن الكريم إلى العمل في ٣٥٨ آية وردت تحض على السعي والعمل . . ومن هذه الآيات التي نقرؤها : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

فهنا جعل العامل يحس بالرقابة كي لا يهمل العمل ، فجعل العامل يستشعر رقابة الله عز وجل ورسوله . . ثم محاسبة المؤمنين له إن هو قصر في أدائه لواجبه ، وطالب بالإخلاص في العمل ، وأن يكون عملاً صالحاً لخدمة المجتمع .

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف : ٨٨] .

---

(١) عبد الرزاق ماجد ـ دراسة ابن خلدون في ضوء النظرية الاشتراكية ـ صفحة ٦٦ .

والعمل مطلوب من الذكر والأنثى على حد سواء . . ولا فرق بينهما في الأجر . . فمن أخلص في عمله فله الحياة الطيبة المباركة . ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] .

فأين من يقولون : إن الدين الإسلامي إنما هو دين كسل وخمول ، وإن الدين أفيون الشعوب ، وإن الدين يدعو للكسل والتواكل ؟! هل نسوا قول رسول الله ﷺ : «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»(١) ؟! هل نسوا قوله ﷺ : «**إن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه**»(٢) ؟!

أم هل نسوا أن هذا الذي يراه الناس من الشجر والمطر والزروع ، والتي يجدونها شيئاً طبيعياً ، إنما طُلِب من المسلمين التفكر فيه ، للوصول إلى اليقين ، وبالتالي سيكون دافعاً لإعمار الأرض والحفاظ على هذه الزروع والثمرات . ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٠ ـ ١١] (٣) .

ووجهنا إلى الكثير من مصادر الرزق في البر والبحر . . وجعل لنا من البحر مصدراً للرزق والبحث فيه . ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٩) ومسلم (١٠٣٣) .
(٢) رواه مسلم (١١٥٩) والنسائي (٤/ ٢١١) وأحمد (٢/ ١٩٨) .
(٣) « فيه تسيمون » : فيه ترعون دوابكم .

لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٤] (١)

فجمع لنا ما بين الطعام والحلية، وكلاهما سيتبعهما البيع والشراء . . ثم بين لنا مسير السفن، تمخر عباب البحر، وكأنه يرمز من طرف خفي إلى أحد أساليب التجارة . . وبعدها قال: «ولتبتغوا من فضله» كيف؟ إن ذلك لا يكون إلا بالعمل والسعي .

وقسم الإسلام الحياة إلى عبادة وعمل . . وإن كان العمل هو عبادة في حد ذاته: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠] (٢) .

ودعا إلى العمل الدؤوب والابتعاد عن الكسل . . فالعمل في الإسلام شرط لشرف النفس، وحفظ الكرامة، ونفع الأسرة، والإنسانية . . «**ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده**»(٣) . . ولكن الكثير من الناس من يعمل، فهل هذا يكفي؟

لا . . لأن الإسلام اشترط أن يرافق العمل إخلاص وإتقان له، وأن لا يهمل العامل عمله لأن الله عز وجل يراقبه . . «**إن الله يحب إذا**

---

(١) « وتستخرجوا منه »: من البحر الملح خاصة . « مواخر فيه »: جواري فيه تشق الماء شقاً .

(٢) « فانتشروا »: تفرَّقوا للتصرف في حوائجكم .

(٣) رواه البخاري (٢٠٧٢) .

عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[١] . . وهذا الإتقان سوف يؤدي إلى نجاح العمل . . ولكن نجاح العمل لا يتحقق بغير إخلاص وصواب ، فما لا نريده ولا نخلص له لا نعمله . . وما لا نعرف طريق تحقيقه لا سعي إليه . . ولو سعينا إليه بغير طريقه فلا نصل إليه . . ولذلك فللعمل الناجح شرطان هما : القدوة والإرادة .

والإرادة هي الإخلاص ، أي : حب تحصيل أمر ما وإرادته والإخلاص له . . بينما القدرة هي الصواب ، أي معرفة كيفية تحصيل هذا الأمر المراد .

ويقول ابن تيمية في جواب سؤال عن الهمة والعزم والإرادة : «الإرادة الجازمة هي التي يجب وقوع الفعل معها إذا كانت القدرة حاصلة ، فإنه متى وجدت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة وجب وجود الفعل لكمال وجود المقتضي السالم عن المعارض المقاوم» .

فإذاً توافر القدرة والإرادة يؤديان لعمل يكون على تناسب يوافق نسبتهما ارتفاعاً وانخفاضاً وانعداماً ، فإن ارتفعت القدرة والإرادة إلى درجة الكمال كان العمل في درجة الكمال ، وإذا انخفضتا انخفض العمل ، وإذا انخفض أحدهما أو انعدم ، انخفض العمل بدوره أو انعدم[٢] .

---

(١) انظره في مجمع الزوائد (٤/ ٩٨) والمطالب العالية (١٢٧٥) وكشف الخفاء (١/ ٢٨٥) .

(٢) جودت سعيد ـ العمل قدرة وإرادة ـ صفحة ١٢ .

ومن مصطلحات الإرادة والقدرة : العبادة ، وهي إخلاص العمل لله عز وجل : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

فالاستعانة هي تسخير ما خلق الله عليه الكون في السنن والأسباب .

فإذاً نستطيع أن نقول : إنه هنا لدينا غاية هي عبادة الله ، ووسيلة هي الاستعانة به عز وجل . . والاستعانة تكون بتسخير ما خلق الله لنا .

فإذاً الغاية هي الأمر المراد ، والمخلص له ، والوسيلة هي الاستخدام الصحيح للإمكانات المتاحة ، وتشتمل على الأشياء والأفكار . . ولأن الغاية هي عبادة ، والعمل عبادة ، فوسيلة العمل لا بد أن تكون مشروعة كي تؤدي لعبادة ناجحة تنال رضا المشرِّع . . ومن هذا المنطلق دعا الإسلام إلى الابتعاد عن الكسب الحرام ، وحث على الكسب الحلال الطيب . ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۖ وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [النحل : ١١٤] .

فمن سلك طريق الكسب الحرام فقد ابتعد عن جادة الصواب ؛ لأن الكسب الحرام ، وإن حقق الغنى فلا بد أنه ما وصل إليه إلا بالقضاء على أسس أخلاقية وَضَعَها الإسلام . . ونسي هذا قوله ﷺ

---

(١) « الدين » : العبادة . « حنفاء » : مائلين عن الباطل إلى الإسلام . « دين القيمة » : الملة المستقيمة .

لأحد الصحابة عندما رأى يده مشققة خشنة من كثرة العمل : «**إن هذه يد يحبها الله**»[١] .

ونسي عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه يومَ علا أعرابياً بدرته لأنه كان جالساً يدعو الله أن يرزقه ، فنهره ، لا لأنه يدعو ، وإنما لأنه يتواكل ، والتواكل منبوذ في الإسلام . . وإنما الإسلام هو التوكل . . اعقل وتوكل . . أي بعد الأخذ بالأسباب ، وسلوك طريق الكسب الحلال .

ولذلك فقد حث الإسلام على أمور تدعم اقتصاد المجتمع الإسلامي كالزكاة والصدقات والتعاون ، وحرم التعامل بالربا والاكتناز والقمار . . ودعا إلى النجاة بكل ما يضر المجتمع سواء اجتماعياً أو اقتصادياً كالمتاجرة بالخمور والحشيش . . وكل أنواع المخدرات .

وما هذا كله إلا ليبني حضارة إسلامية اقتصادها متين ، ولها قوانينها وأسسها التي لا يضاهيها بها أحد ، والتي تؤمن للفرد المسلم الراحة والسعادة والأمن الاقتصادي والنفسي .

الزكاة

هي اسم لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء ، سميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة وتزكية النفس وتنميتها

---

(١) سبق تخريجه .

بالخيرات ، فإنها مأخوذة من الزكاء . . والزكاء هو النماء والطهارة والبركة . ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة : ١٠٣] (١) .

وهي أحد أركان الإسلام الخمسة .

ولشدة أهميتها فقد قرنت بالصلاة في اثنتين وثمانين آية ، وحذَّر الإسلام من منعها ، فهي حق واجب لا محيص عنه ، لأن من يمنع الزكاة ، فهو لا بد يكنز أمواله . . واكتناز الأموال أمر غير وارد في الشريعة ، وقد حذر منه القرآن . ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة : ٣٤ ـ ٣٥] .

وجعل الإسلام الزكاة رحمة للغني والفقير ، فهي تطهر الغني ، وتغني الفقير (٢) . . فهذه هي الزكاة ، وهذا هو حرص الإسلام على واجب أدائها ، ولكن لماذا ؟

لأن الزكاة عندما تؤدى حقاً ، وبالشكل الذي حدَّده الإسلام ، فقد تكون ثورة حقيقية في عالم الاقتصاد . . فهي عند تطبيقها بشكل سوي وصحيح ستكفي الجميع مؤونة العوز ، وستنتفي البطالة ،

---

(١) « وتزكيهم بها » : تُنمِّي بها حسناتهم وأموالهم . « وصلِّ عليهم » : ادعُ لهم ، واستغفر لهم . « سكن لهم » : طمأنينة ، أو رحمة لهم .

(٢) السيد سابق ـ فقه السنة ـ مجلد ١ ص٣٢٧ .

وتؤدي الزكاة عندها إلى سد حاجات الناس ، وإلى توفير الرفاهية لهم . . فأي عصر من العصور شهد ما عُرف في عصر الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، الذي كان يرسل منادياً في الأسواق ، وكان يضع المال من بيت مال المسلمين على ظهر الدواب ، يدور بها الموظفون ليسدوا حاجة المحتاج ، أو ليزوجوا شاباً تعسر الأمر معه ، فما كانوا يجدون أحداً ، فيعودون بالأموال إلى بيت مال المسلمين . . وقد وصلت درجة الاكتفاء ، ووفرة الأموال إلى حد جعل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يوظف لكل أعمى رجلاً يقوده ، ويلبي مطالبه !! .

كل هذا كيف حصل ؟! لقد حصل بالتنظيم لأموال المسلمين ، ووضعها في مصارفها الصحيحة . . وهذه المصارف قد حصرها الله تعالى في قوله : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٠] (١) .

فهذه ثمانية أصناف قد شملتها الزكاة ، وهي بهذا لا يضيق بها الغني ، وترفع مستوى الفقير إلى حد الكفاية ، وتجنبه شظف العيش وألم الحرمان . . وهناك ناحية مهمة يجب الانتباه إليها ، وهي أن

---

(١) « والعاملين عليها » : كالجُباة ، والكُتَّاب ، والحرَّاس . « وفي الرقاب » : في فكاك الأرقاء أو الأسرى . « والغارمين » : المدينين الذين لا يجدون قضاء . « وفي سبيل الله » : في الغزو . « وابن السبيل » : المسافر المنقطع عن ماله .

الزكاة ليست منّة يهبها الغني للفقير ، وإنما هي حق استودعه الله في يد الغني ، ليؤديه لأهله ، وليوزعه على مستحقيه ، ومن ثم تتقرر هذه الحقيقة الكبرى وهي : أن المال ليس وقفاً على الأغنياء دون غيرهم ، وإنما المال للجميع ، أي للأغنياء والفقراء ، على السواء[١] .

فهذا مثال المجتمع المتعاون المتكاتف المحقق لقول الرسول ﷺ : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً** »[٢] .

ويقول قانون التعاون : إن الفرد يجب أن يعمل لمنفعة الغير وخير الناس . . والحديث يقول : « **خير الناس أنفعهم للناس** »[٣] .

ويقول كثير من الكتّاب : إن التعاون مذهب اقتصادي اجتماعي ظهر في منتصف القرن التاسع عشر ، وكأنهم تناسوا أن الإسلام الحنيف قد دعا إلى التعاون بلفظه ومعناه منذ حوالي أربعة عشر قرناً ، فقال القرآن الكريم . ﴿ **وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** ﴾ [المائدة : ٢] .

وقال الرسول ﷺ : « **الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه** »[٤] .

---

(١) السيد سابق ـ فقه السنة ـ مجلد ١/ ٤١٦ .

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٦) ومسلم (٢٥٨٥) .

(٣) انظره في كتاب المجروحين لابن حبان (٢/ ٧٩) .

(٤) رواه مسلم (٢٦٩٩) وأبو داود (٤٩٤٦) والترمذي (١٩٣٠) وابن ماجه (٢٢٥) .

ومن العجب أن يقال : إن مؤسس التعاون هو ـ روبرت أوين ـ المتوفى سنة ١٨٥٨م ، وإن داعية التعاون هو ـ وليم كنج ـ المتوفى سنة ١٨٦٥م . . مع أن الحق أن الإسلام هو مؤسس التعاون وداعيته ، بما شرَّع من نظم عادلة ، وألزم الجميع بالتضامن والتكافل .

والعجيب أن ـ روبرت أوين ـ عندما أنشأ مدارس للتعاون وبدأ التدريس فيها أهمل تدريس التعاليم الدينية ، مع العلم أن هذه التعاليم تحض على التعاون أكثر من غيرها ، وبخاصة تعاليم الإسلام ، ولذلك هاجم رجال الدين ـ أوين ـ وحملوا عليه[١] .

وهذا مثال عن أولئك الذين يصوغون مناهج يدّعون فيها الإبداع والتفرد ، وما هي إلا وردة من بساتين الدين وأزهاره .

ويقول المعاصرون : إن التعاون يراد منه محاربة الأثرة والأنانية وتعليم التضحية والإيثار . . ولعل المسلمين قد ضربوا على مر العصور أمثلة رائعة في الإيثار ، وكانت قصة شهداء شربة الماء من أبلغ القصص في هذا المجال ، فقد أتت هذه الحادثة تمثيلاً عملياً لقوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩][٢] .

---

(١) الدكتور أحمد الشرباصي ـ يسألونك في الدين والحياة ـ مجلد ٣/ ٢٠٩ .

(٢) « خصاصة » : فقر واحتياج « يوق » : يُجنَّب ويُكْفَ . « شح نفسه » : بُخْلها مع الحرص على المنع .

ويقول المعاصرون أيضاً : إن مبدأ التعاون يعمل على احترام الملكية الخاصة ، والملكية العامة .

ولقد وفق الإسلام بأسلوب رائع بين هاتين الملكيتين دون أن يجحف بأي منهما . . فحب التملك غريزة طبيعية لاستيفاء أسباب الحياة ، فهي من الفطرة ، وعند انعدام الملكية الخاصة تصدم الغرائز ويصير الإنسان خاملاً ، وبالتالي ليس له طموح ، ومن هذا الجانب احترم الإسلام الملكية الخاصة . . «**كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه**»[١] .

ولم يهمل الإسلام الملكية العامة فهي بدورها مهمة ، ولا ينبغي أن يتسلط عليها قوم دون آخرين فقد ورد في الخبر : «**الناس شركاء في ثلاثة : الماء والكلأ والنار**» .

ونصَّ الرسول ﷺ عليها لأنها كانت المصادر الأساسية التي تعتمد عليها حياة المجتمع العربي في الجاهلية وفي صدر الإسلام ، ومن هذا نفهم أن الإسلام وجهنا إلى أنه يوجد مصادر أساسية للثروة العامة ، يجب أن تكون تحت يد الأمة ، وفي سبيل خدمة مصالح هذه الأمة . . لا تحت يد فرد من الأفراد ، لأن الأشياء تتغير بحسب البيئات والظروف والمجتمعات . . فالماء والكلأ والنار . . يحل محلها كل ما هو مُلك عام .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) والترمذي (١٩٢٧) .

ومن العرض السابق نلاحظ أن الإسلام لم يتفق مع المبدأ الرأسمالي ، كما لم يتفق مع المبدأ الاشتراكي . . فالمجتمع الإسلامي لا يتفق مع الرأسمالية في القول بأن الملكية الخاصة هي المبدأ ، ولا مع الاشتراكية في اعتبارها الملكية العامة مبدأً عاماً . . بل إن الإسلام يقرر الأشكال المختلفة للملكية في وقت واحد .

فيضع بذلك مبدأ الملكية المزدوجة بدلاً من مبدأ الشكل الواحد للملكية ، الذي أخذت به الرأسمالية والاشتراكية ، فهو يؤمن بالملكية الخاصة والملكية العامة ، وملكية الدولة ، لذلك كان من الخطأ أن يسمى المجتمع الإسلامي مجتمعاً رأسمالياً وإن سمح بالملكية الخاصة . . كما أن من الخطأ أن نطلق على المجتمع الإسلامي اسم المجتمع الاشتراكي .

وقد يتساءل بعضهم عن جدوى مبدأ الملكية المزدوجة . . وهل هذا المبدأ صحيح أم لا ؟ وسنتحرى هذا من واقع التجربتين الرأسمالية والاشتراكية ، فليس هنا كأدل على صحة الموقف الإسلامي من الملكية القائمة على أساس مبدأ الملكية المزدوجة . . فمن واقع التجربتين الرأسمالية والاشتراكية ، فإن كلتا التجربتين اضطرتا للاعتراف بالشكل الآخر للملكية ، لأن الواقع برهن على خطأ الفكرة القائلة بالشكل الواحد للملكية .

فقد بدأ المجتمع الرأسمالي منذ أمد طويل يأخذ بفكرة التأميم ، وينزع عن بعض المرافق إطار الملكية الخاصة .

وليست حركة التأميم هذه إلا اعترافاً بعدم جدوى المبدأ الرأسمالي في الملكية ، ومحاولة لمعالجة ما نجم عن ذلك المبدأ من مضاعفات وتناقضات .

كما أن المجتمع الاشتراكي من الناحية الأخرى ؛ وجد نفسه بالرغم من حداثته مضطراً إلى الاعتراف بالملكية الخاصة .

فالمادة السابعة من الدستور السوفياتي تتضمن أن لكل عائلة من عوائل المزرعة التعاونية ، بالإضافة إلى دخلها الأساسي الذي يأتيها من اقتصاد المزرعة التعاونية المشترك قطعة من الأرض خاصة بها ، وملحقة بمحل السكن ، ولها في الأرض اقتصاد إضافي ومنزل للسكن وماشية منتجة وطيور وأدوات زراعية بسيطة ؛ كملكية خاصة . . وكذلك سمحت المادة التاسعة بتملك الفلاحين الفرديين والحرفيين لمشاريع اقتصادية صغيرة ، وقيام هذه الملكيات الصغيرة إلى جانب النظام الاشتراكي السائد[١] .

وبعد هذا يأتي أناس ، سواء من المجتمع الرأسمالي أو الاشتراكي ، ليهاجموا الإسلام ، ومن أي ناحية ؟! من الناحية الاقتصادية !! متجاهلين النظم السائدة في مجتمعهم ، لأنهم قد وضعوا نصب أعينهم محاربة الإسلام ، متغاضين عن أخطاء مجتمعهم وأنظمتهم ، متناسين ذلك الرخاء الذي عرفه المجتمع

---

(١) محمد باقر الصدر ـ اقتصادنا ـ ٢٩٥ ـ الملكية المزدوجة .

المسلم أيام تطبيق الإسلام ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

ولكن هيهات أن يصل مبغضو هذا الدين لهدفهم ، فهم من زمرة : ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد : ١] .

الإكتناز

من خصائص النظام الاقتصادي في الإسلام أنه حرَّم الاكتناز ، وشدّد في تحريمه .

والكَنز هو جمع المال ، وجعله فوق بعضه بعض ، والامتناع عن إنفاق هذه الأموال فيما شرَّعه الله تبارك وتعالى من الخير والبر ، مع أنه لا فائدة منها إلا في إنفاقها ، وكنزها تعطيل للمراد منها . . ولذلك كان الكنز دليلاً على سخف العقل ، وعلى عصيان الشريعة الآمرة بالإنفاق في استقامة وعدل ، كما أن كنز الأموال وتخزينها يعلم صاحبها البخل والشح ، والإهمال لأداء ما أوجب الله في الأموال من حقوق لله أو للناس[١] .

إذاً الكَنز منهي عنه لعدة أمور هي :

١ ـ إن الكنز هو تجميد للمال ، وتعطيل له عن أداء وظيفته السليمة في بناء المجتمع .

٢ ـ والكنز يُعلّم الناس على البخل والشح وعدم إنفاق الأموال .

---

(١) يسألونك في الدين والحياة ـ د . أحمد الشرباصي ـ مجلد ٥/ ١٤٥ .

٣ ـ وهو عصيان ومخالفة لأوامر الله عز وجل الذي استخلفنا على هذه الأموال .

٤ ـ هذا الكنز مع الزمن سوف يؤدي إلى تفاوت طبقي شديد ، فيجعل الأغنياء ينظرون نظرة احتقار للفقراء ، ويمتنعون عن الإنفاق عليهم ، فيشعر الأغنياء مع الأيام أن الصدقات للفقراء عبء كبير عليهم فيمتنعوا عن أدائها .

وربما تطورت الأمور أكثر فامتنعوا عن أداء زكاة هذه الأموال . . وهنا يكونوا قد حكموا على المجتمع بالفساد ، وبالتفاوت الطبقي الذي طالما سعى الإسلام لمنع حدوثه .

لذلك ودرءاً لكل ما قد يحصل من هذا كان القرآن شديداً في نهيه الناس عن كنز الأموال . ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة : ٣٤ ـ ٣٥] .

وكم نرى اليوم من فقراء يتضورون جوعاً ، وجيرانهم إلى جوارهم يتنعمون بما لديهم من أموال وثروات ، ويتلذذون بأطايب الطعام كل يوم ، وهم يظنون أنه إنما يتمتعون بأموالهم وقد نسوا أن الله تبارك وتعالى إنما رزقهم هذا المال فتنة لهم ، لينظر كيف يفعلون .

ونسي هؤلاء أنَّ الله قد استخلفهم في هذه الأموال ؛ ليُحسنوا

إنفاقها في مصارفها الصحيحة السويّة ، فالله تبارك وتعالى شجع كثيراً على الإنفاق في سبيله ورغّب فيه لمنع الكنز . . ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

وجعل من سبيله قرض الناس ، ومساعدتهم بالمال ، ومن فعل كذلك كأنما أقرض الله عز وجل ليجد ثواب ذلك فيما بعد . ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد : ١١] .

وبهذه الطرق ينتهي الكنز ، ويسود التراحم بين أفراد المجتمع .

فالكنز سحب للأموال عن مجال التداول وتجميد لها ، فمنعه الإسلام بطريقة أخرى أيضاً ، ففرض ضريبة على ما يكنز المرء من النقود الذهبية والفضية ، فبالقضاء على هذا الاكتناز ، تندفع الأموال جميعاً إلى حقول النشاط الاقتصادي ، وتمارس دوراً إيجابياً في الحياة الاقتصادية ، وبذلك يكسب الإنتاج كثيراً من تلك الأموال التي كانت تُؤثر بطبيعتها، ولولا ضريبة المال المكتنز، لاختفت الأموال في جيوب أصحابها بدلاً عن المساهمة في المشاريع الصناعية والزراعية وما إليها[١] .

ولكن ليس معنى الكنز والنهي عنه بهذا الشكل ، والتشديد في تحريمه والتحذير منه ، كل هذا لا يعني أن الإسلام ، كما يفهم

---

(١) اقتصادنا ـ محمد باقر الصدر ـ ٦٥٨ .

بعضهم ، يدعو إلى بعثرة المال بلا حساب ، أو يدعو إلى إنفاق كل المال ، أو أن الإسلام لا يشجع على التوفير والإدخار كما يفهم بعضهم هذا ، منطلقين من المثل الشعبي القائل : اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب .

فهذا مبدأ مرفوض ، لأن القرآن الكريم يرشدنا إلى أن ما ينفقه الإنسان ينبغي أن يكون «بعض» ما يملك وليس «كل» ما يملك . . فالله تبارك وتعالى يقول مثلاً : ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ [البقرة : ٢٥٤]. ولم يقل : ما رزقناكم لأن (ما) تدل على «كل» بينما «مما» تدل على «بعض» .

ويقول عن المؤمنين : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] (١) .

ومما يقوّي ذلك ويؤكده أن الإسلام قد وضع نظاماً للميراث ، والإنسان لا يكون له ميراث ، إلا إذا كان لديه مال يملكه ويتركه بعد موته ، وهذه الملكية للمال لا تتحقق إلاّ إذا كان يدخر شيئاً أو يقتصده ويوفره(٢) .

إذاً لنتفق على مجموعة أشياء :

---

(١) « ولم يقتروا » : لم يضيقوا تضييق الأشحاء . « قواماً » : عدلاً وسطاً بين الطرفين .

(٢) الدكتور أحمد الشرباصي ـ يسألونك في الدين والحياة ـ مجلد ٥/ ١٤٦ .

١ ـ إن بعثرة الأموال هنا وهناك ، وانتظار الغيث من السماء بعد ذلك ، أمرٌ مرفوض في الإسلام .

٢ ـ الإنفاق يكون باعتدال ومراعاة أحكام الشريعة فيه .

٣ ـ الادخار وجعل جزء من المال للاحتياجات المستقبلية وتحسباً لأمور طارئة ليس وارداً في الشريعة الإسلامية فقط ، ولكنه واجب المؤمن الفطن .

٤ ـ الميراث لا يحقق إلا بوجود الادخار وحسن التصرف بالمال .

وإذا حاولنا أن ندرس الجوانب الإيجابية في هذا الميراث ، لوجدناها كثيرة من أهمها : منح الإسلام ملكية المال بعد موت المالك إلى أقربائه ، هو الجانب الإيجابي من أحكام الإرث ، فهو يشكل عاملاً دافعاً للإنسان نحو العمل وممارسة ألوان النشاط الاقتصادي ، بل عاملاً أساسياً في الأشواط الأخيرة من حياة الإنسان ، التي تتضاءل فيها فكرة المستقبل عنده ، وتحتل موضعها فكرة الأبناء والقربى ، فيجد في أحكام الإرث التي توزع أمواله بعده بين أقربائه الأدنين ما يغريه بالعمل ، ويدفعه إلى تنمية الثروة حرصاً منه على مصالح أهله بوصفهم امتداداً لوجوده[١] .

وتنمية الثروة هذه ـ بالتالي ـ حاجز آخر أمام الكَنز ، فهو سيقوم

---

(١) محمد باقر الصدر ـ اقتصادنا ـ ٦٦٣ .

بتشغيل أمواله في المشاريع والتجارة في سبيل تنميتها ، وقد يتوفى قبل أن تنتهي مشاريعه ، فيتابع أهله ما بدأه هو . . وهكذا تستمر عجلة العمل ، وطرح الأموال في حقول التنمية الاقتصادية .

وبهذا ينتفي تراكم رؤوس الأموال ، ويمنع ظهور التفاوت الطبقي والمشكلات الاقتصادية الاجتماعية .

الربـا

الربا في اللغة هو الزيادة . . والمقصود به هنا : الزيادة على رأس المال ، قلَّت أو كثرت هذه الزيادة . ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] .

وقد حُرِّم الربا في جميع الأديان السماوية ، فهو محظور في اليهودية والمسيحية والإسلام . . وقد جاء في العهد الجديد : «إذا أقرضت مالاً لأحد من أبناء شعبي ، فلا تقف منه موقف الدائن ، لا تطلب منه ربحاً لمالك»[١] .

وجاء فيه أيضاً : «إذا افتقر أخوك فاحمله ، لا تطلب منه ربحاً ولا منفعة»[٢] .

هذا بالنسبة لليهود ، رغم ادعاء بعضهم بجواز أخذ الربا من غير

---

(١) آية ٢٥ ـ فصل ٢٢ ـ من سفر الخروج .
(٢) آية ٣٥ ـ فصل ٢٥ ـ من سفر اللاويين .

اليهودي كما جاء في آية ٢٠ من الفصل ٢٣ من سفر التثنية . . وقد ردَّ عليهم القرآن . ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [النساء : ١٦١] .

وفي كتاب العهد الجديد : « إذا أقرضتم لمن تنتظرون منه المكافأة ، فأي فضل يعرف لكم ؟ ولكن افعلوا الخيرات ، وأقرضوا غير منتظرين عائدتها ، وإذاً يكون ثوابكم جزيلاً »(١) . . واتفقت كلمة رجال الكنيسة على تحريم الربا تحريماً قطعياً استناداً إلى هذه النصوص .

قال سكوبار : « إن من يقول إن الربا ليس معصية يعد ملحداً خارجاً عن الدين » .

وقال الأب يوني : « إن المرابين يفقدون شرفهم في الحياة الدنيا ، وليسوا أهلاً للتكفين بعد موتهم » .

وقد تحدث القرآن الكريم عن الربا في عدة مواضع مرتبة ترتيباً زمنياً . . ففي العهد المكي نزل قول الله سبحانه . ؛ ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم : ٣٩] (٢) .

وفي العهد المدني نزل تحريم الربا صراحة . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) آية ٣٤ و٣٥ ـ فصل ٦ ـ إنجيل لوقا .

(٢) « ربا » : هو الربا المحرَّم المعروف . « ليربو » : ليزيد ذلك الربا . « فلا يربوا » : فلا يزكو ، ولا يبارك فيه . « المضعفون » : ذوو الأضعاف من الحسنات .

﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰا أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

[آل عمران: ١٣٠]

وهنا ظنَّ بعضهم أن الربا محرم فقط إذا كان أضعافاً مضاعفة، فختم الله سبحانه وتعالى التشريع بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَوٰٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾

[البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩] (١).

فهنا ردَّ الله عز وجل عليهم، لأن الله لم يبح إلا رد رؤوس الأموال دون الزيادة عليها(٢).

فإذاً ثبت من الناحية الشرعية أن الربا حرام بكافة أشكاله.. وللربا أشكال كثيرة لا مجال لذكرها الآن.

ولكن ماذا عن علم الاقتصاد.. فإذا كان الربا محرّماً شرعاً، فهل من فائدة لذلك من ناحية علم الاقتصاد؟.

بالطبع فالله عز وجل ما شرع من أمر في الدين إلا وله من عظم الفائدة ما يعجز العلماء عن كشفه دفعة واحدة، فيحدثنا محمد باقر الصدر عن الفائدة من تحريم الربا: فإن الإسلام عندما حرَّم الربا، ألغى بهذا رأس المال الربوي، وبذلك ضمن تحول رأس المال هذا في المجتمع الإسلامي إلى رأس مال منتج يساهم في المشاريع

---

(١) «فائذنوا بحرب»: فأيقنوا به.

(٢) السيد سابق ـ فقه السنة ـ ٣/ ١٣٠.

الصناعية والتجارية . . وهذا التحول يحقق مكسبين للإنتاج :

١ ـ **المكسب الأول** : هو القضاء على التناقض المرير بين مصالح التجارة والصناعة ، ومصالح رأس المال الربوي ، لأن الرأسماليين في مجتمعاتهم التي تؤمن بالفائدة ، ينتظرون دوماً فرصتهم الذهبية حين تشتد الحاجة من قبل رجال الأعمال في التجارة والصناعة إلى المال ، ويزيد طلبهم عليه لكي يرفعوا سعر الفائدة ، ويمسكوا بأموالهم طلباً لأعلى سعر ممكن لها ، فهذا في الإسلام قد زال ، وأصبح رأس المال في خدمة التجارة والصناعة يلبي حاجاتها ، ويواكب نشاطها .

٢ ـ **المكسب الثاني** : للإنتاج ، هو أن تلك الأموال التي حولت إلى ميادين الصناعة والتجارة ، سوف تستخدم بعزم وطمأنينة في مشاريع ضخمة وأعمال طويلة الأمد ؛ لأن صاحب المال لن يبقى أمامه بعد إلغاء الفائدة إلا أمل الربح ، وهو يحركه نحو اقتحام تلك المشاريع الضخمة المغرية بأرباحها ونتائجها خلافاً لحاله في مجتمع يسيطر عليه نظام الفائدة ، فهناك يفضل إقراض المال ، لأن الربح عن طريق الفائدة مضمون ، أما في المجتمع المسلم فلن يفكر في الفائدة لانعدامها ، وبالتالي ليس أمامه إلا المشاريع التجارية والصناعية[١] .

لهذا كله كانت حكمة تحريم الربا ، وبالإضافة لكل ما ذكر فالربا

---

(١) محمد باقر الصدر ـ اقتصادنا ـ ٦٥٦ .

عندما يتفشى في مجتمع ما سوف يؤدي إلى توجيه إصبع الاتهام نحو المرابين في تخريب اقتصاد وأمن الإرادة ، وسوف يؤدي إلى إثارة الضغائن والأحقاد فيما بين أفراد المجتمع الواحد بسبب التعامل غير الإنساني الذي ينطوي عليه أسلوب التعامل بالربا .

وكذلك الربا من أهم أسباب تراكم الثروات بأيدي بعض الأفراد ، وهذا يمكنهم من السيطرة اقتصادياً على الآخرين ، لذلك وجبت محاربته .

ولقد عاش العالم الإسلامي ثلاثة عشر قرناً تقريباً ، بعيداً اقتصادياً عن لوثة الربا ، وقادراً على مواجهة مشكلاته المالية كلها وحلها ، إلى أن جاء الاستعمار السياسي ، وجاء معه الاستعمار الاقتصادي ، وأصبح الربا سمة المعاملات المالية ، وأفقدنا ذلك الأمن الاقتصادي بعد أن افتقدنا الأمن النفسي[١] .

ولهذا نجد أن من الضروري محاربة الربا إذا أردنا مجتمعاً صالحاً متقدماً ، وكل من يدرس طرق النهوض بالمجتمعات يلاحظ أن الربا لا ينسجم مع المجتمع الصالح ، ولا يكون إلا أحد أساليب انهيار المجتمعات ، وليس النهوض بها .

وهذا التفكير ليس جديداً فقد كان منذ عصور ما قبل الميلاد . . فالربا في نظر أرسطو من أشد أنواع التبادل المالي كراهية وشذوذاً ،

---

(١) عمر عبيد حسنة ـ نظرات في مسيرة العمل الإسلامي ١٩٦ .

إذ إن الربا يستخرج الربح من المال نفسه ، ولا يستخدم المال استخداماً طبيعياً ، لأن المقصود بالمال أن يكون وسيلة للتبادل ، لا لتوليد الفائدة . . فهذا الربا الذي يولد المال من المال أكثر الوسائل ـ وسائل الكسب ـ بعداً عن الطبيعة ، ويجب عدم توليد المال من المال[١] .

وبعد . . أرجو أن أكون قد وفقت في إعطاء صورة مصغرة ، ورؤوس أقلام عن الحياة الاقتصادية في الإسلام .

وآمل من العقلاء أن يكونوا متفهمين لحقيقة الأمر ، وأن يقولوا كلمة الحق دون غلوّ ، فالإسلام واضح بيّن لا غموض فيه .

وهذه الصفحات الموجزة لا تشكل إلا قطرة من بحار العلم الغزيرة ؛ التي يزخر بها فكرنا الإسلامي .

والعلم ونيله لا يتم والمرء جالسٌ مكانه بلا حركة ، ينتظر الفرج من السماء ، وإنما العلم سبيله الحركة والقراءة الدائمة ، ومن أحب التوسع فعليه بالكتب والمراجع ، لا يغنيه عنها شيء .

ولكن قبل هذا أحب أن أذكركم بقول الفيلسوف فرنسيس بيكون : « بعض الكتب تذاق ، وبعضها تبلع ، وبعضها تمضغ ، وجميع أنواع هذه الكتب تشكل بلا شك قطرة صغيرة جداً من شلالات الحبر وبحاره ؛ التي يغتسل فيها العالم ويغرق كل يوم » .

---

(١) ول ديورانت ـ قصة الفلسفة ـ ٩٦ .

ولنطلب العلم ، لنصل إلى التحلّي بالحلم . . كما قال الجاحظ : الحلم بالعلم ، والعلم بالبيان .

ولتكنْ لنا نفوس تعلو على كل صدأ ، لأن هذه النفوس هي الوحيدة القادرة على الوصول إلى الحقيقة .

وكما قال الدكتور طه حسين يوماً : « صدقني أن نفوس الناس معادن ، ومن المعادن ما تعلو على كل صدأ ، ومن المعادن ما يعلو عليها كل الصدأ » .

ويجب أن نكون واضحين في دعوتنا ، فنحن ندعو إلى الدين الإسلامي ، وهذا الدين بحد ذاته واضح لا لبس فيه . ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

* * *

الخاتمة

قد يظن بعضهم أن ما ذكر في هذه الصفحات التي مرَّت ، إنما هو دفاع عن الإسلام ، ولكنهم قد ابتعدوا في فهمهم عن الجادة ، لأن الإسلام أسمى من أن يوضع في قفص الاتهام وتكال له التهم ، ويتولى أحد الدفاع عنه . . فالإسلام نظام غمر البشرية ذات يوم بنور ما زلنا نعيش على هداه ، ووضح السبل والطرق إلى الحضارة التي فجرها وبناها أجدادنا .

إن هذا الكتاب إنما هو نوع من التذكير المرحلي بالدين الإسلامي ، في زمن قد أصبح فيه المجتمع بأمس الحاجة لهذا التذكير ، فغدا حتى أهل الإسلام لا يعرفون حقيقة دينهم . . ولا يعرفون كيف يخوضون هذه الحياة ، وعلى أي شيء يعتمدون في مسيرتهم . . فأصبحنا فرقاً وجماعات شتى .

لقد أصبح المسلمون اليوم أربعة أقسام :

١ ـ بين متربص بالباطل لينقض عليه إذا سنحت له الظروف .

٢ ـ وبين مداهن لكل وضع ، يرى الحكمة وفصل الخطاب وإنقاذ ما يمكن إنقاذه بهذه الطريقة .

٣ ـ وصنف يريد أن يعتز بالحق لا يتربص ولا يداهن ، ولكن

هذا الصنف لم يثبت على قدميه بعد .

٤ ـ ويمكن أن نقول : إن هناك صنفاً متردداً لم يتبين له شيء ، فهو حائر مضطرب[١] .

فالصنف الأول والثاني محكوم عليهما بالإخفاق ، إن لم يكن عاجلاً فآجلاً . . ويجب اجتنابهما كي لا ننضم إليهما في طرقهما الملتوية .

ويجب أن نكون من الصنف الثالث ، لكي نأخذ بأيدي هؤلاء المترددين من الصنف الرابع ، ونثبتعلى أقدامنا معهم .

لماذا ؟ لكي نستطيع التحول إلى الحضارة الإسلامية الجديدة المشرقة ، وهذا التحول لا بد أن ننطلق فيه من أنفسنا . والله وحده هو الذي يُحسِّن الأحوال ، ولكن وفق ماذا ؟

إن هذا يتعلق بتلك الأنفس التي نحملها بين جنباتنا ، لأن هذه الحال من التشتت والضياع إنما وصلنا إليها بأيدينا ، بعد أن أهملنا دستورنا المقدس ، وبعد أن تجاهلنا قاعدة بناء الحضارات . ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

ولو أننا اتبعنا التضحية التي أسداها والد محمد إقبال لولده ؛ لكنّا بألف خيرٍ ، يقول إقبال :

---

(١) جودت سعيد ـ مذهب ابن آدم الأول ـ صفحة ٨٠ .

« أشد ما أثر في حياتي نصيحة سمعتها من أبي : يا بني اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك » .

لأنه عند قراءته بهذا الشكل سوف نعرف سنن الكون ، وقيام الحضارات ، وانحطاطها ، وسبل العودة والبناء من جديد .

وما أحوجنا اليوم لمثل هذه المعرفة ، ونحن نعيش على أطلال حضارة أقامها أجدادنا ، ويجب النهوض بها من جديد .

وهذا لا يتم لنا إلا عندما نشعر بضرورة هذا النهوض ، وحاجتنا إليه ، ولذلك يجب علينا أن نتبنى مفهوماً واضحاً لجوهر التحدي الذي يواجهنا في محاولاتنا الوصول إلى حضارة إسلامية معاصرة . . وجوهر التحدي هذا يتمثل في العناصر التالية :

- القدرة على شحذ الفعالية الروحية للأمة .
- القدرة على استيعاب علوم الغرب وتكنولوجياته استيعاباً كاملاً .
- القدرة على إبداع نظمنا الحضارية الخاصة بنا .
- القدرة على حماية المنجزات الحضارية للأمة .

هذه هي الخطوط الأولية من أجل نهضة جديدة ، وقد جاءت مفصلة في كتاب « ثغرة في الطريق المسدود » وهو بحق دراسة في البعث الحضاري[١] .

فنحن عندما نشعر بعنصر التحدي ، أي بالمشكلة تعترضنا ،

---

(١) د . سيد دسوقي حسن ود . محمود محمد سفر ـ ثغرة في الطريق المسدود ـ ص١٨ .

نسعى للحل ، والحل يقودنا إليه النفر القدوة القادرون على إرشادنا وتوجيهنا . . من أجل تحقيق حضارة إسلامية معاصرة ، على أرضية إسلامية قويمة ، دون المساس بالمعتقدات ودون تشويه الدين .

ويجب أن يكون واضحاً في الذهن أن العودة الصحيحة إلى كتاب الله عز وجل وإلى سنة نبيّه ﷺ ، هذه العودة هي الطريق الوحيد لاستعادة ما مضى من عزّة الإسلام والمسلمين .

وعندما نلتزم بإسلامنا ، ونحقق منهج الحق فينا ، عندها سنكون أهلاً للاستخلاف في الأرض ، ولإعمار هذه الأرض كما أمَرَنا الله عز وجل . . ولا ننسى أن درب البناء طويل وشاق ، والاعتماد الأول فيه هو على وعي الشباب المسلم ، وحسن تيقظهم وتفتحهم ووعيهم لمشكلات أمتهم ، وترفعهم عن سفاسف الأمور .

ويجب أن تكون دعوتهم واقعية وليست مثالية . . وعليهم مواجهة التحدّيات . . والصبر عند البلاء . . والعمل الدؤوب المتواصل . . ومثل هذا العمل هو الذي سيؤدي لبناء المجتمع الذي نطمح له . . وهو الذي سيدفع الأمة نحو حضارة مشرقة ومتطورة .

وليس لنا أخيراً إلا قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *